الفصل التاسع عشر

لا تضيّعوا الأجر

في قبرص، كاد ريتشارد يفقد صبره عند وصول الأخبار السارَّة عن نجاح فيليب في عكّا. إن لم يسرع الملك الإنكليزي، فقد يستولي منافسه المحنّك على الجائزة ويسرق المجد لنفسه.

في الخامس من حزيران/ يونيو 1191م، غادر فاماغوستا على متن أسرع قوادسه، الذي سماه ترنشمير Trenchemere أي حافر الخندق، بسبب الغور الذي يشقّه بين الأمواج. وأصدر الأوامر لبقية الأسطول للحاق به بأسرع ما يمكن. في اليوم التالي، لاحت كتلة قلعة المرقب المتجهّمة من خلال السديم، عالياً فوق الساحل السوري. كانت أراضي العدو تحيط كلّياً بهذا الحصن الإسبتاري المهيب. وخلال تقدّم ريتشارد نحو الجنوب، اجتاز طرطوس وطرابلس وصيدا وبيروت، وكلّها أراض عدوّه إلىٰ أن وصل إلىٰ صور، حيث لم يتصرّف الأصدقاء بأفضل من الأعداء، إذ أغلق كونراد أبواب المدينة وأجبر الملك على أن يخيّم، كأيّ متشرّد عادي، على الشاطىء.

في 7 حزيران/ يونيو، كان ريتشارد يبحر من جديد، فالتقى جنوب بيروت بسفينة ضخمة ثلاثية الصواري، عالية السطح، تمتلىء بالمؤن، وكان جانباها

مخطّطين بالأحمر والأصفر. عند الاتصال الأوّل عرّفت السفينة عن نفسها بأنّها تابعة لملك فرنسا. فاقترب ريتشارد بسرعة طمعاً في معرفة آخر الأخبار. عندها غيَّرت السفينة الغريبة فجأة روايتها وقالت إنّها في الحقيقة آتية من جنوى ومتوجّهة إلىٰ صور. لكن جاسوساً عربياً كان على متن سفينة ريتشارد لاحظ التشابه بين هذا الصرح وسفينة كان قد رآها حديثاً في ميناء بيروت، وعلى ظهرها حمولة مائة جمل من الأسلحة، وصناديق من النار اليونانية في زجاجات، وأكثر ما يرعب، قوارير تملؤها مئتا أفعى مميتة. وسرعان ما بانت الحقيقة، فجمل البحر الكبير هذا كان يحوم خارج عكّا، بانتظار اللحظة المناسبة لخرق الحصار. كانت هذه السفينة تحمل 650 من الجنود الممتازين وكمية من المؤن لمساعدة المدينة الجائعة على التحمّل لأشهر مقبلة.

عندما اقتربت ترنشمير، انهالت عليها السهام والنيران اليونانية من سطح سفينة العدو المرتفع. هذا الهجوم العنيف وغير المتوقّع أبعد الصليبيين فتراجعوا. عندئذٍ راح ريتشارد يوبّخ رجاله الجبناء، وصرخ بهم قائلاً: «أستسمحون لهذه السفينة بالابتعاد من دون أن تمسّوها بأي أذى؟ هذا مؤسف، مؤسف. لقد أصبحتم جبناء من كثرة الكسل، ومن الانتصارات العديدة على أعداء ضعفاء! العالم بأسره يعرف أنّكم في خدمة الصليب!» وقد استحثّ هذا الكلام رجاله، فغطس العديد منهم تحت سفينة العدو وشبكوا دفّتها بالحبال لإعاقة حركتها وإبطائها. وكرّر البعض الآخر هجومهم لكنّهم صُدّوا على الفور.

ما حدث فيما بعد ليس واضحاً. تقول بعض الأخبار إنّ ريتشارد، عندما أدرك أنّ رجاله لم يقدروا على أخذ السفينة، أمر قوادسه بضربها بمقدّماتها. وتقول أخبار أخرى إنّ الأميرال العربي، إذ لاحظ أنّ وضعه ميؤوس منه، أغرق السفينة. في كلا الحالتين كانت النتيجة واحدة. بدأت السفينة الضخمة تغرق، وفجأة امتلأ البحر رجالاً ومؤناً. كذلك، كانت هناك روايات مختلفة حول ردّة

فعل صلاح الدِّين عندما سمع بفقدان السفينة المنقذة. وقد نقل عنه مصدر مسيحي أنّه قال: «يا إلهي، الآن خسرتُ عكّا. إنّها خسارة كبيرة، وسأهلك». لكن هذا الانتحاب لم يكن من صفاته، والمؤرّخ العربي نقل عنه ردّة فعل مختلفة، فقال إنّه لجأ إلىٰ قرآنه بكل هدوء وأشار بإصبعه إلىٰ الآية التي يردد فيها: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: 115].

في 8 حزيران/ يونيو، وصل ريتشارد أخيراً إلىٰ عكّا بمجموعته الحربية المؤلّفة من خمس وعشرين سفينة. ومن البحر رأى التحدّي الذي ينتظره منبسطاً أمامه. كانت أسوار المدينة المتعبة وفتحاتها محاطة محاصَرة، وبرج الذباب والبرج الملعون متضررين ولكن لا يزالان منتصبين، والخطوط المسيحية الملوّنة خارج الأسوار تقطعها آلات الحصار الكبيرة، والدخان يرتفع من انفجارات النيران اليونانية حولهم. وكانت القوات المسلمة، المتدافعة حتّى الخنادق المسيحية الخارجية، وخيام الأعداء ورياتهم مزركشة اللون، بما فيها مركز القائد صلاح الدِّين على جبل الخروبة، تنتشر مبعثرة على التلال المحيطة.

طبعاً كان هناك سرور وغبطة مع وصول ريتشارد. تلك الليلة رُوكمت أكوام الحطب وأُشعلت النيران على الشواطىء وقرب البرج الملعون. وعلت صيحات الحشد عبر التلال، يرافقها دوي الأبواق ورنين الصنوج. هذه الجلبة أفسحت المجال في عمق الليل لكورس الأغاني الصليبية:

Lignum crucis, Signum ducis, Sequitur exercitus...

أي «راية القائد تسير بقدرة الروح القدس»، وكذلك نشيد فرجيل:

Uma salus victis nullam Salutem...

أي «لا يساعد المنهزمين إلاّ الأمل بعدم جدوى المساعدة». تليها القصائد الدينية. وأخيراً نحيب القِرَب الإسكتلندية، وقرع الطبول الصغيرة

للرقص تحت آلاف المشاعل، وأنغام القيثارة. بالنسبة إلىٰ المسلمين المتمركزين على التلال المحيطة بدا كأنّ الوادي كلّه يحترق. لقد سمعوا عن ملك الملوك هذا وعن منجزاته الجريئة. والآن قد أتى، وهم يخشون الأسوأ. بينما كان صلاح الدِّين يستمع إلىٰ الضجيج وينظر إلىٰ ذلك المشهد أمام عينيه، احتفظ بهدوئه، لأنّه كان يتّكل على رحمة ربّه وحمايته، مطمئنّاً إلىٰ إخلاص دوافعه.

عندما وطأت قدم ريتشارد اليابسة، استقبله فيليب بالترحاب وواكبه حتّى خيمته الملكية التي أُعدّت له. فتحادثا بحماس عن سُبل إخضاع سريع للمدينة المرهقة. ولكن لم يمرّ زمن طويل حتّى وقع بينهما خلاف سببه المال، فقد كان فيليب الأكثر تسرّعاً بين الاثنين ممّا يعرّضه لاتّخاذ قرارات غبية في ما يتعلّق بالأرض والذهب. إنّه يطلب الآن وبكلّ بلاهة نصف غنيمة قبرص، تبعاً للاتفاق الذي عقداه في ڤيزيلي. وإذ لم يعترض ريتشارد فقد طالب بدوره بنصف فلاندريا. وكان الطلبان من كلا الطرفين مستحيلين، لأنّ اتّفاق ڤيزيلي يُطبّق فقط على أراضٍ يستوليان عليها معاً في فلسطين. غير أنّهما تجاوزا هذه النزاعات، ربّما مع غمزة ظريفة، والتفتا إلىٰ المشاكل الجدّية التي تنتظرهما.

لم تنتهِ هنا نزعة فيليب إلىٰ اتخاذ القرارات الخاطئة في المسائل المالية. مثلاً عندما جاء إليه تابعه الوفي ونسيبه هنري دو شامباني لحاجته إلىٰ مؤن جديدة، بعد عدّة أشهرٍ من قيادته الحصار وحده، عرض عليه فيليب مائة ألف قطعة ذهب باريسية، لكن على شرط أن يتنازل نسيبه عن إقطاعيته في شامباني للتاج الفرنسي. فصدم هنري وخيّب أمله نكران الجميل فأجاب: «أنا فعلتُ ما كان عليّ فعله، والآن سأفعل ما تمليه عليّ الضرورة. أردتُ أن أقاتل من أجل ملكي، لكنه لا يحتاج إليّ إلاّ مقابل أخذ ما هو لي. سأذهب إلىٰ من يستقبلني ومن هو أكثر استعداداً للعطاء من الأخذ». فسعد ريتشارد بهذه الفرصة

واغتنمها، مغدقاً على هنري أربعة آلاف مكيال من القمح، وأربعة آلاف ذبيحة خنزير، وأربعة آلاف ليرة من الفضة.

كان فيليب رخيصاً، ورأى ريتشارد في فشل رفيقه القديم طريقة سريعة لوضعه في الظل. وعندما سمع أنّ فيليب يعطي الجنود الذين في إمرته ثلاثة بيزنطيات ذهبية أجراً لهم في الأسبوع، نشر رجال ريتشارد أنّ الملك الإنكليزي يدفع أربع قطع ذهبية. ومن جديد تجاوز فيليب وتفوّق عليه، فانسحب فيليب ساخطاً لبضعة أيام. لقد كتب مؤرّخ إنكليزي يقول: «عندما جاء ريتشارد، خبا بريق ملك الفرنسيين وذوى اسمه، كما يشحب ضوء القمر عند شروق الشمس».

وبما أنّ فيليب اعتمد الزاوية البارزة عند البرج الملعون منطقة هجوم له، فقد أقام ريتشارد آلات حصاره مقابل البوابة الشمالية. ونقل مؤرّخ القرن الثالث عشر العربي أبو الفرج لاحقاً أنّ الملكين نشرا أكثر من ثلاثمئة كبش ومنجنيق خارج أسوار عكّا. وبما أنّ أبناء جنوى كانوا قد أقسموا على الولاء لفيليب، جلب ريتشارد أبناء بيزا إلى معسكره. وفي ثالث أيامه في البلاد أعاد بناء قلعته الخشبية ماتي غريفون، التي أحضر أخشابها من صقلية، وغلّف جدرانها بالحبال والجلود المنقوعة بالخل للحماية ضد النار اليونانية. ومن على سطحها بدأ الرماة يقذفون أسهمهم على جدران البرج الملعون. كذلك بدأ قاذف المنجنيق بتقويض الأسوار، ورفع رجاله سلالمهم. كانت منجنيقاته أصغر من التي يملكها فيليب، لكنه أحضر معه من صقلية جلاميد من الغرانيت أكثر فعاليةً من أحجار فلسطين الكلسية الناعمة. فكانت ترمي هذه المقذوفات الثقيلة على البوابة الشمالية. وريتشارد نفسه كان في حركة دائمة. «كان الملك يركض صعوداً ونزولاً بين الصفوف، يوجّه البعض، ويؤنّب البعض، ويشجّع البعض. هكذا كان حاضراً في كلّ مكان ومع كلّ واحد من جنده، بحيث كان كلّ ما يفعلونه ينبغي أن يُنقل إليه».

خلال تلك الأيام التي شهدت نشاطاً محموماً، وبينما كان ريتشارد يستعدّ لسحق مدينة عكّا والانتقام من أعدائه، تساءل، ولا شكّ، أيّ نوع من الرجال هو الإنسان الذي يقف في مواجهته. فبعد وصوله بقليل تلقّى بدل المقذوفات هدايا من صلاح الدِّين. سلال من الإجاص، والخوخ الدمشقي وثمار أخرى، إضافةً إلىٰ هدايا صغيرة أخرى وصلت إلىٰ ريتشارد وفيليب كبادرة سلام ورغبة في التفاوض. مع هذه الطريقة الغريبة في التعاطي مع الأعداء، بعث ريتشارد برسول إلىٰ صلاح الدِّين عبر خطوط الجبهة واقترح لقاءً بين القائدين وجهاً لوجه.

وتردّد صلاح الدِّين قبل أن يجيب[1]: «الملوك لا يجتمعون إلاّ عن قاعدة. وما يحسُنُ منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة».

II

الصيحة المدوّية

حوالي نهاية شهر حزيران/ يونيو حصل كسوف للشمس أغرق ساحة القتال في الظلام لثلاث ساعات وأثار بلبلة في صفوف الجيش المسيحي. وأدّى موافقة هذه الظاهرة الاستثنائية لذكرى ولادة القديس يوحنا المعمداني إلىٰ جعل الظهور أكثر رهبة أيضاً. وبالفعل لم يمضِ وقت كثير حتّى تطوّرت الأحداث على نحو سيّىء. فقد أصاب الملك ريتشارد مرض غريب أقعده في السرير، رافقته حمّى مرتفعة وتقرّح مؤلم في فمه ولثّته، وبعد بضعة أيام بدأ شعره يتساقط وأظافره تضعف. وبعد فترة قصيرة أصاب فيليب أغسطس البلاء نفسه. وشخّص الأطباء المشكلة على أنّها أرنالديا أو ليوناردیا، المعروفة عموماً باسم

(1) ابن شدّاد، ص 163.

الخناق الغشائي المتقرّح أَو الأسقربوط، وهو اعتلال نتج على الأرجح من نقص الفيتامين في نظامهما الغذائي.

خلال مرض ريتشارد، تابع الفريقان اتّصالاتهما الدبلوماسية بشأن لقاء محتمل بين الملك الإنكليزي وصلاح الدِّين. وبدا لوهلة أنّ هذا الأخير سيلين ويوافق على اللقاء، وانعقاده في سهل عكّا بين فرق الجيشين. ووصلت إلىٰ معسكر صلاح الدِّين شائعات عن معارضة قوية قامت ضدّ هذا اللقاء في الصفوف المسيحية. حينئذ وصلت رسالة ثانية من ريتشارد يقول فيها: «لا تصدّق الأخبار التي نُشرت بالنسبة إلىٰ سبب تأخّري. أنا وحدي المسؤول عن نفسي، وسيّد أفعالي. ولكن في الأيام الأخيرة منعني المرض من القيام بأيّ عمل».

وتابع يقول: «من عادة الملوك أن يتبادلوا الهدايا. لديّ الآن هدية تستحقّ أن يقبلها السلطان، وأطلب الإذن لإرسالها له».

وأجاب الملك العادل، شقيق صلاح الدِّين، قائلاً: «يمكنه أن يرسل الهدية شرط أن يقبل هدية منّا بقيمة مماثلة».

عندها قال السفير الصليبي: «قد تكون هديتنا صقوراً من وراء البحار، لكنّها هزيلة جدّاً، وسنكون ممتنّين إن أرسلتم إلينا بعض الدجاج لإطعام الصقور وتنشيطها، وحينئذٍ نرسلها إليكم».

استُقبل هذا الكلام بالضحك، وخمّن العادل أنّ «الملك يريد الدجاج لنفسه».

وبدا أنّ المبادلات الدبلوماسية تراجعت من هنا، إلىٰ أن قال الموفد المسيحي أخيراً: «هل لديكَ ما تضيفه، تكلّم فنعرف ما هو».

«لسنا من قدّم عروضاً للتفاهم؛ أنتم أتيتم إلينا. إن كان لديك ما تقوله، فلك أن تتكلّم وتعلمنا بوجهات نظركم. نحن على أتمّ الاستعداد لسماعك».

على هذا انتهى اللقاء، وأوصل الموفد إلىٰ الباب، بعد إهدائه ثوباً ملكياً. ورأى المسلمون أنّ الدافع للخوض في هذه المفاوضات هو معرفة مواطن ضعف الأعداء وقوّتهم، وما يجول في خاطرهم.

أُبعد فيليب عن الأجواء الدبلوماسية. لكنّ تقرّح فمه كان نوعاً ما أقلّ حدّة ممّا هو حال ريتشارد، كان الملك الفرنسي مستعدّاً للعودة إلىٰ خطوط المعركة في الأوّل من تموز/ يوليو. أمّا ريتشارد فقد طلب في هذيانه من فيليب أن ينتظر بضعة أيام قبل الهجوم الأخير. لقد كان الجزء الأكبر من أسطوله الإنكليزي وجيشه النورماندي عالقين في صور، يحتجزهما طقس معاكس هو ما يعرف بالريح العصوف. بعد أيام قليلة سيكون في حالة أفضل، وستكون كلّ قواته إلىٰ جانبه. لكن فيليب رفض، ربّما اعتقاداً منه أنّه حانت اللحظة المناسبة لانتزاع كلّ المجد لنفسه. فنشر حرس الدفاع على طول الخندق وعمد إلىٰ مهاجمة البرج الملعون بقوّة هائلة.

كان الصليبيون يملكون فكرة معيّنة عن وضع المدينة خلف الأسوار، إذ كان لديهم عينٌ في الداخل يرسل لهم بانتظام تقارير تبدأ دائماً بالعبارة «باسم الآب والابن والروح القدس، آمين». غير أنّ حالة المدينة البائسة لم تكن ظاهرة في طريقة قتال المدافعين عنها. فقبل أن يتمّ عزلها، كان يدافع عنها تسعة آلاف جندي، أُنهكت مدينتهم مع الوقت، لكن شجاعة المدافعين ويقظتهم بقيتا مذهلتين. لقد عهد بقيادة الدفاع عن المدينة إلىٰ أميرين مهمّين، يعرفهما المسيحيون فقط بلقبيهما قراقوش المشطوب. كان قراقوش، وهي كلمة تركية تعني «النسر»، مسؤولاً منذ بداية الحصار قبل سنتين. إنّه أساساً من الخصيان العبيد لدى صلاح الدِّين في مصر. لكن مواهبه كانت ظاهرة من البداية، فسلّمه السلطان مسؤولية كبيرة. فقد عرفت مصر وفاءه وجدارته في مجال البناء، حيث أشرف على إنشاء قلعة القاهرة، المعروفة باسم «قلعة الجبل»، وكذلك أسوار المدينة والجسور التي تؤدّي إلىٰ الأهرام. كان يبدي

سمتاً يوحي بالأهمية، ممّا جعل كثيرين يقلّدونه ساخرين، حتّى في صفوف شعبه، لسذاجته الظاهرة. لكنّه كان أميراً معتبراً وموثوقاً به.

أمّا المشطوب فكان الأكثر تميّزاً بين أمراء صلاح الدِّين. إنّه كردي نبيل المشاعر معروف بكرمه وسمو أخلاقه. وقد أُعطي هذا اللقب بسبب ندبة كبيرة ظاهرة في وجهه. لسنوات كانت علاقته بصلاح الدِّين متينة، متينة لدرجة أنّه عندما ولد ابن للمشطوب، كتب السلطان إلىٰ أميره يقول: «لقد فرحنا بالنجم الذي لاح من خلف الحجاب؛ ونأمل أن نفرح بثمرة شجرة النخل التي لا تزال في برعمها». لقد حظي المشطوب بلقب الأمير الكبير واستلم قيادة عكّا منذ شهر شباط/ فبراير الفائت فقط.

بعث الأَميران إلىٰ السلطان برسائل تعلمه أنّ المدينة في ضيق شديد، وأنّ الحامية منهكة، والأبنية خرائب، خصوصاً حول ينبوع ثور آدم، بسبب القصف اليومي. كانت الشروط الصحية تعيسة، ليس بسبب نقص الطعام ووجود جثث أموات المدينة وحسب، بل أيضاً بسبب جثث الخيول والأبقار الميتة التي كان المسيحيون يقذفونها من فوق الأسوار بمنجنيقاتهم. كان بعض الجنود يقفزون لملاقاة حتفهم يائسين، وبعض آخر يرتدّون وحتّى يقبلون العمادة بحسب الدين المسيحي. إن لم يفكّ صلاح الدِّين الحصار، سيجدون أنفسهم مضطرّين للاستسلام في وقت قريب.

وأجاب صلاح الدين: حاوِلوا الصمود أسبوعاً آخر. فهناك أسطول من السفن المصرية في طريقه من الإسكندرية[1]، وفرقة للتعزيز آتية بالبرّ من بغداد. كان صلاح الدِّين يكتب مهتاجاً إلىٰ خليفة بغداد وإلىٰ حاكم القاهرة ويقول: «لقد هدموا الأسوار والمدينة في خطر... لم يبق لنا سوى أن نسأل الله أن يمنّ

(1) في الأصل: من القاهرة.

علينا بتجاوز المحنة. إن لم تأتِ النجدة الآن فمتى؟ من يصل عندما لا تدعو الحاجة إليه فكأنّه لم يصل قط».

بينما كان فيليب يضاعف هجومه على البرج الملعون، ارتفعت من المدينة إشارة دخان مع قرع الطبول بنيّة إعلام مركز القيادة على التلال البعيدة بأنّ العدو بدأ هجوماً آخر وأنّه حان لقوات صلاح الدِّين أن تقترب من الخندق. بعد ذلك بقليل تقدّم جنود السلطان باتجاه المواقع، وحاولوا بكلّ شجاعتهم أن يخترقوا بعض الثغرات ويتجاوزوا الصفوف المسيحية. وبالفعل نجح بعض الجنود المنفردين في أكثر من مكان في عبور الخندق وتمزيق الخيام المسيحية وزرع الفوضى. ولكن بشكل عام كان هؤلاء المغاوير المسلمون يُصدّون. لكنّهم نجحوا على الأقل في وضع حزمة من الحطب، المنقوع في النار اليونانية، على إحدى آلات فيليب وأضرموا فيها النار؛ ما بطّأ الاعتداء الفرنسي على البرج، وعند نهاية النهار قاد فيليب هجومه الوحيد، وبدا أنّه، كما هو حظّه في الحياة، عليه أن ينتظر ريتشارد مرّة جديدة.

بدأ اليوم الثاني من تموز/يوليو حارّاً مشعّاً، وكان يبشّر بنشاط غير عادي. فأخيراً لاح الأسطول الإنكليزي في البحر، حاملاً معه عدداً من قادة المعارك النورمان والإنكليز الكبار. لقد وصلوا في الوقت المناسب، لأنّه من جديد عادت القوات المسلمة، هذه المرّة بقيادة ابن شقيق صلاح الدِّين، وظهرت عند الخندق الخارجي وحاولت مجدّداً إقامة جسر لعبوره. لكن قاذفي فيليب أحرزوا أخيراً تقدّماً في تدمير البرج الملعون. وفي باطن الأرض، حيث كانت الأساسات تتصدّع، التقى نفقهم بنفق اللغّامين المسلمين المقابل وحصلت معارك تشابك بالأيدي في أماكن مغلقة ومظلمة. إذاً ردّت القذائف المضادة اللغّامين المسيحيين، حتّى عندما كان السور ينهار مصدراً ضجيجاً مروّعاً فوقهم في أحد الصدوع.

بينما كان الجدار يغور عند البرج الملعون، لم يعد ريتشارد يطيق توعّكه.

فطلب أن يُحمل، بلثّته المتقرّحة وشعره المتساقط وكلّ شيء، إلىٰ البوابة الشمالية على فراش مصنوع من لحافه الملكي. ومن أعلى ماتي غريفون، وصل إلىٰ نشابيته وراح يصطاد المسلمين المنطلقين بسرعة بمحاذاة السور في الأسفل. ومن ضرباته الموفّقة سهم رماه فأصاب قلب مدافع كانت لديه الجرأة في ارتداء درع فارس فرنسي سقط عن جواده.

عندئذ حضرت كلّ عناصر المعركة لدى ريتشارد. فراح قاذفوه يعملون تحت برج البوّابة، ومرجامه يضرب جزءاً من الجدار، بينما يقصف منجنيقه جزءًا آخر بقنابله الصقلية. ولعجز الملك عن رفع الصوت بأوامره، طلب من مذيعيه أن ينشروا خبر مكافأته أيّ جندي بأجر أسبوع يبلغ أربع بيزنطيات ذهبية عن كلّ حجر ينتزعه بنفسه من الأسوار. حتّى مع هذا الخطر المحيق والأعمال المروعة، تمسّك العديد من الضباط والمرافقين بالفرصة، وكثيرون منهم لم يوفّقوا. وأخيراً بدأت بوّابة البرج تميل وسرعان ما وقعت على نفسها. لكن عندها أيضاً هرع مسلمون شجعان لحماية المدينة من الاقتحام. إذ لم ينجح تحريض أسقف سالزبوري للجند، ولا إلهام راية كونت ليستر، ولا شجاعة محاربي بيزا الشرسين في إحباط تصميم المدافعين الجريء.

في 4 تموز/ يوليو طفح كيل المشطوب وقراقوش فأطلقوا أوّل اقتراح للسلام. تحت الراية البيضاء، تمّت مرافقة النسر وصاحب الندبة إلىٰ خيمة الداوية قرب البوّابة الشمالية وفي حضور الملكين. وهناك قدّما اقتراحهما. كانا مستعدّين لتسليم المدينة، كما قالا، ولدفع كميّة من الذهب والفضّة، إذا ضُمنت سلامتهما وجرت حماية أملاكهما، وإذا تلقّى السكان معاملة جيّدة. بهذا الشأن قال الأَمير الكبير[1]: «إنّا أخذْنا منكم بلاداً عدّة، وكنا نهدم البلد وندخل فيه. ومع هذا إذا سألونا الأمان أعطيناهم وحملناهم إلى مأمنهم وأكرمناهم. ونحن نسلِّم البلد، وتعطينا الأمان على أنفسنا».

(1) كتاب الروضتين 2/ 257.

فردّ ريتشارد بحدّة: «الذين أخذتموهم كانوا خدمنا وعبيدنا، وأنتم كذلك عبيدنا». عندها أجاب المشطوب على نحو مسرحي: «نفضّل أن نقتل أنفسنا على أن نسلّمكم المدينة. ولن يموت أيّ منّا قبل أن يقضي خمسون من كباركم». فلم يُدهش ريتشارد، بل قال ببرودة أعصاب: «إنّ فدية جسديكما ستكون رأسيكما».

لكن فيليب يتعذّب. كان على استعداد للقبض على هذه الفرصة وإنهاء الصراع. هو أيضاً ضجر وتعب، أكثر من سنة من الإهانات على يد ريتشارد وستّة أسابيع من الحصار الجهنّمي. كان متعباً من المهانة ومن بقائه في الظل، ومتعباً من الحرب، وقلقاً بسبب إهمال فرص ليس من يسهر عليها في أوروبا. كان يريد مخرجاً بأسرع ما يمكن.

غير أنّ ريتشارد تلكأ. كان محارباً ويهوى الحرب أكثر من أيّ شيء آخر. لا مجد في استسلام العدو، بعد تفاوض وشروط. وهو لم يأتِ كلّ هذه المسافة من أوروبا مع جنوده، متحمّلاً فقدان أكثر خيّالته شجاعة، ومخاطراً بمملكته في دياره، ليكتفي بدخول مدينة فارغة. مع خراب أبراج عكّا ووقوع جدرانها، ووجود قواته على حافة الانتصار، كان يصرّ على إتمام عمله.

بالرغم من ذلك فقد قدّم عرضاً مقابلاً. لقاء حياتهم وسلامة ممتلكاتهم، يقبل الملك ريتشارد بعودة كامل المملكة اللاتينيّة كما تحدّدت قبل أربع وأربعين سنة عندما قام لويس، ملك فرنسا، بزيارة القدس. إضافةً إلىٰ ذلك، تجب إعادة الصليب الأعظم، الذي أُخذ خلال معركة حطين.

انتاب الأَميرين خوف كبير، واعترضا قائلين: «من دون موافقة السلطان صلاح الدِّين لا يسعنا الإذعان لهذه المطالب الفادحة. أعطنا هدنةً ثلاثة أيام نتشاور فيها مع السلطان».

عند عودتهما إلىٰ المدينة، ومع استمرار القصف بلا هوادة، كتبا رسالةً إلىٰ السلطان أرسلاها مع حمامة زاجلة إلىٰ التلّة البعيدة: «لقد ضعفنا وأُنهكنا

كثيراً ولم يعد من خيار أمامنا غير تسليم المدينة. إن لم تفعلوا شيئاً لإنقاذنا سنضطر إلىٰ الاستسلام من دون شرط سوى الإبقاء على حياتنا».

لكن صلاح الدِّين لم يكن مستعدّاً للاستسلام. كان لا يزال يتوقّع المزيد من التعزيزات من الجنوب والشرق. وطلب من أمرائه أن يثابروا. إن لم يستطع إنقاذهم في غضون أيام، سيوافق على استلامٍ مشرّف. وعلى الفور، شنّ هجوماً عنيفاً على الخندق، قاده هذه المرّة بنفسه. وبحسب ما يقول مؤرّخه كان يتنقّل من كتيبة إلىٰ كتيبة، «وهو أشدّ حالةً من الوالدة الثكلى والوالهة الحيرى»، وصارخاً برجاله: «هيّا، في سبيل الله».

لكن المسيحيين شكّلوا جبهة متينة. ورجع جنوده بحكايات عجيبة عن شجاعة الصليبيين. كان هناك صليبي ضخم أمسك بحاجز عند الخندق حتّى بعدما اخترقه أكثر من خمسين سهماً، ولم يصرعه إلاّ رامي شعلةٍ مسلم قذف عليه زجاجةً ملتهبةً، أحرقتْهُ حيّاً. وكانت هناك أيضاً حكاية عن امرأة صليبية، ملتفّة برداء أخضر اللون، بقيت تقتل المهاجمين بقوسها الطويل إلىٰ أن قُتلت بدورها. وقد أحضر قوسها إلىٰ صلاح الدِّين، الذي أبدى استغرابه.

بعد يومه عند الأسوار عاد صلاح الدِّين إلىٰ خيمته مرهقاً وحزيناً وانكبّ على الصلاة لوقت طويل. من جديد بحث عن المواساة في الآية القرآنية ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة هود: 115].

عندما نهض في اليوم التالي واستعدّ لهجوم جديد على الخندق، وجد اعتراضاً حتّى من رجاله. «أنت تعرّض الإسلام بأسره للخطر. لا يمكن لهذه الخطّة أن تفضي إلىٰ النجاح». وهكذا لان صلاح الدِّين وبقي في المعسكر.

في 8 تموز/ يوليو اخترق العدو السور الخارجي لجهة الشرق وراح يعمل على السور الداخلي. ردّاً على ذلك، وكأنّه فهم أنّ عكّا ضائعة لا محالة، أحرق صلاح الدِّين بلدة حيفا، إلىٰ الجنوب عند الطرف الثاني من خليج عكّا، بحيث لم يعد لمرفئها ومنشآتها لبناء السفن أيّ فائدة للأعداء. وازداد أساه عمقاً

عندما نجح أحد السبّاحين في تجاوز خطّ الحصار ومعه رسالة أخرى من الأمير الكبير[1]: «إنّا قد تبايعنا على الموت، فإياكم أن تخضعوا للعدو، وتنيبوا لهم، فإن نمت قد فات أمرنا. يجب أن تفعلوا كلّ ما في وسعكم لإلهاء العدو ومنعه من مهاجمتنا. لا تتواضعوا أمام الأعداء ولا تظهروا بمظهر ضعاف القلوب». وبتعهّدهم على الانتحار جماعياً، لفّ الحماة أنفسهم برداء الشهادة الأخضر.

بينما كانت حيفا تحترق، عاد صلاح الدِّين بعرض مقابل يقوم على رد الصليب الأعظم وتبادل أسير لقاء أسير لتحرير المدافعين عن عكّا. ثلاثة آلاف أسير مسيحي مقابل سكّان عكّا. لكن ريتشارد رفض من جديد. لن يرضيه سوى كلّ الأسرى المسيحيين الواقعين في قبضة صلاح الدِّين وكلّ مدن المملكة اللاتينيّة. فسخر صلاح الدِّين من طمع ريتشارد المنافي للعقل ومن عناده، واستنتج أنّه لا يتعامل مع رجل محنّك في الدبلوماسية الرفيعة، فذكر العبارة الواردة في القرآن: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران: 54].

عند انهيار هذه «الدبلوماسية» شنّ فيليب هجوماً عنيفاً آخر على البرج الملعون، حيث صار هناك صدع بطول إحدى عشرة ياردة قرب المتراس. لكنّه رُدّ من جديد بعد مصرع أربعين من رجاله. وبعد هذا الهجوم المسعور والعقيم حصل ظهور عجائبي لدى كلّ من الفريقين. تبعاً لما يذكره روجر أوف هوفدن، مؤرّخ الحملة الصليبية الثالثة الكبير، أشرق نور من السماء، وظهرت السيدة مريم العذراء على الحرّاس المسيحيين عند برج يهوذا، فتكرّمت وقالت: «لا تخافوا، لأنّ الربّ أرسلني إلىٰ هنا من أجل سلامتكم. حالما يطلع الفجر، اذهبوا وقولوا لملكيكم، باسم يسوع المسيح ابني وسيّدي، أن يمتنعا عن تقويض أسوار هذه المدينة. بعد أربعة أيام سيضعها الرب بين أيديهما». عند

(1) قارن بمفرّج الكروب 2/ 359.

اختفائها اهتزّت الأرض كما من جراء زلزال. فأجفل الطرف المسلم وخاف أيضاً، ولكن تقدّم أحد الجنود وقدّم تفسيراً. لقد رأى ألف جندي من الخيالة يظهرون فجأة، ويهزّون الأرض، وكانوا كلّهم في لباس الشهادة الأخضر. وهكذا جاء شهداء الماضي للانضمام إلىٰ جيش المسلمين، ولا بدّ للخلاص من أن يكون قريباً.

بعد أربعة أيام، في 12 تموز/ يوليو 1191م، سقطت عكّا. ولحماية المستسلمين والمساومة على حياتهم، أخذ المشطوب وقراقوش زمام المبادرة وعند الانتهاء من المشاورات، أعلما صلاح الدِّين. من جديد شقّ الأَميران طريقهما إلىٰ خيمة الداوية للقاء الملكين. كانت شروط الاستسلام قاسية. فإضافةً إلىٰ المدينة، كان المطلوب تسليم خمسمائة أسير مسيحي ومئتي ألف بيزنطية ذهبية. ويبقى ألفا مسلم في الأسر، كذلك يؤخذ مائة من الأكثر ثراء، ومن الشخصيات الوجيهة في البلدة، كرهائن. ومن ضمنهم المشطوب وقراقوش. وربّما من الأمور الأكثر أهميّة أنّ الأَميرين وعدا بإعادة صليب المسيح الأعظم إلىٰ الجانب المسيحي في غضون شهر واحد. وعندما دفع المال وصارت الرهائن في السجن، صار بإمكان بقية أهالي البلدة المغادرة، آخذين معهم ممتلكاتهم وزوجاتهم وأولادهم.

حدث الإخلاء في يوم واحد، وانتشر العساكر المسيحيون في خطّ واحد حتى تلة تورون لمشاهدة رحيل اللاجئين. لقد توقّعوا حشداً موسّخاً ورثّ الثياب ومكتئباً. لكن المسلمين غادروا المدينة مرفوعي الرأس، سالمي الكرامة، مع مفاخرة ظاهرة. وكان المسيحيون ينظرون مندهشين.

وقال أحد المراقبين المستغربين: «لو لم يكونوا كفّاراً، لأمكن القول إنّه لا يوجد شعب أكثر حشمة وإقداماً منهم». وكتب آخر أنّ العرب أظهروا ما يُعرف عنهم من شجاعة وجرأة وهيبة يُشهد لهم بها. كذلك كتب المؤرّخ يقول: «لم تبد عليهم أمارات الهم وهم يتقدّمون، ولا دلالات الأسى لفقدانهم

كلّ ما كانوا يملكون. بالحزم الظاهر على محيّاهم بدوا كأنّهم المنتصرون بفضل قدرتهم الشجاعة على التحمّل».

أمّا صلاح الدِّين الحزين كأب خسر ولده، فكان قانطاً. كان يسمع صيحات الفرح ويشاهد رايات الفرق الصليبية وأعلامها ترتفع على الأسوار وعلى مآذن المسجد. كان يودّ أن ينقض بنود هذه المعاهدة، ولكنّه استلمها من أحد السبّاحين، وقبل وصولها إليه، كان استسلام عكّا أمراً واقعاً. فانسحب المسلمون متأسفين، وصيحات الفرح ترن في آذانهم.

تحوّلت قيثارتهم إلىٰ الانتحاب، وطربهم إلىٰ التجهّم. فلجأ صلاح الدِّين إلىٰ كتابه الكريم، ليجد عزاءه في الآية: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 156]. لم يعد هناك من جدوى للإبقاء على مواقعه الأمامية، وسرعان ما حلّ المعسكر وانسحب جنوباً، حيث نصحه مستشاروه بالسهر على المدن الساحلية وعلى القدس نفسها.

عندما أصبح المسلمون خارج عكّا، دخلها الملكان منتصرين، بالموسيقى والرقص و«بصيحة مدوية». وكانت في الحناجر كلمات زكريا [لوقا 1: 68]: «مبارك الرب إله إسرائيل، لأنّه اتقد وصنع فداء لشعبه». استلم فيليب قصر الداوية، بأبراجه الثلاثة الضخمة المطلّة على البحر، بينما مكث ريتشارد وملكته برنغاريا في القلعة الملكية وسط المدينة. وكانت جائزة فيليب الأسير قراقوش، بينما أخذ ريتشارد الأَمير الكبير، المشطوب. بعد فترة قصيرة دُفعت فدية هذا الأخير وكانت ثلاثين ألف بيزنطية، بينما لم يجمع قراقوش، بالرغم من اعتداده بنفسه ومباهاته، أكثر من ثمانية آلاف. وعندما استقرّ الملكان في المدينة، عمدا إلىٰ قسمة الغنائم بينهما بالتساوي.

لقد صدمت ترتيبات التسليم في عكّا صلاح الدِّين. كان معارضاً شديداً لها، لكن حكّامه المتسرّعين سبقوه. وعندما عرف البنود، بما فيها ما يتوجّب عليه في إطار هذا التفاهم، كانت رايات العدو الحمراء والزرقاء اللازوردية

والخضراء ترفرف بألوانها على سطوح عكّا، لا سيما على مئذنة مسجد الجمعة، وكان أهلوها قد حُشدوا في واحد من أحيائها. في الأيام التي تلت، استغرق صلاح الدِّين في الكآبة ولكن بقي لديه أمل ضئيل في أن يقوم فرسان سريعو الاهتياج من الجيش المسيحي بهجوم متهوّر يمنحهم يوماً آخر من المجد، فيستفرد بهم السلطان ويقوّم هذه المذلّة الفظيعة. غير أنّه لم تلح في الأفق أيّ مجموعة من الطائشين المسيحيين.

لم يظهر غير سفراء من الملكين الأوروبيين، مزوّدين بمطالب، مصوغة بعبارات لبقة ولكن حازمة، لمعرفة كيف ومتى سيسلّم السلطان أسراه، ويقدّم ذهبه، ويرسل صليب المسيح الأعظم. هل كان الأسرى، والذهب، والصليب المقدّس في حوزة السلطان، أم يتعيّن جلبهم من دمشق؟ ذكرت روايات المسلمين فيما بعد أنّ الصليب المقدّس أُظهر للمبعوثين المسيحيين على جبل الخرّوبة فخرّوا راكعين على الغبار في خوف واحترام كبيرين. لكن يبدو أنّ هذا عارٍ من الصحة.

كانت أجوبة صلاح الدِّين على أسئلة الموفدين مبهمة. وقد فسّر السفراء هذا الغموض بأنّه إشارة إلىٰ وجود مشاكل في تطبيق بنود المعاهدة. فاقترح السلطان نظام دفع بالتقسيط، يستحق أوّل أقساطه الثلاثة بعد مضي شهر. ومن جديد، كان هناك التباس حول الفترة الزمنية، لأنّ بعض المسلمين فهموا أنّ لديهم ثلاثة شهور قبل الشروع بالوفاء بتعهّداتهم.

وسعى صلاح الدِّين لتشويش الصورة أكثر عبر مبادرات وفاقية عديدة. وبدل الأمور المطلوب تسليمها، اقترح سلاماً شاملاً ودائماً تُعاد من خلاله كلّ المنطقة الجنوبية من فلسطين إلىٰ المملكة اللاتينيّة، باستثناء قلعتي الكرك والشوبك على طريق الحجّ، إذا قبل الفرنج إعارته ألفي خيال وخمسة آلاف جندي من المشاة لسنة واحدة للقضاء على العناصر المنشقّة في بلاد ما بين النهرين العليا. عندما رفض ريتشارد هذا العرض الغريب، أرسل صلاح الدِّين،

إلىٰ جانب الهدايا الوافرة، أسئلة يستفسر بها عن الدين المسيحي نفسه، وكأنّه يفكّر جدّياً في اعتناقه. ولم يقع ريتشارد في فخ هذه المناورة أيضاً وأعاد كلّ الهدايا السخية.

عندما كان الموفدون الأوروبيون يذرعون الطريق إلىٰ معسكر صلاح الدِّين جيئة وذهاباً، حضّر ريتشارد المرحلة التالية من عملياته. ففكّك آلات حصاره وجمعها في صناديقها للترحيل. ورُمّمت أسوار عكّا فنُظّفت الحفر من الغبار والأحجار والنفايات. ومع اقتراب اليوم الذي يُفترض فيه بصلاح الدِّين أن يعيد الصليب، كتب ريتشارد إلىٰ إنكلترا عن نجاحاته العظيمة. كتب يطلب انتظار وصوله، منتصراً، قبل بداية الصوم الكبير.

بعد شهر من سقوط عكّا جاء الموفدون لجمع ما يتعيّن تسليمه. كان لدى صلاح الدِّين بعض الأسرى، لكن كان يجد صعوبة في تكملة العدد حتّى الستمائة. كذلك، كان ينقص من العدد الذي قدّمه بعض المحاربين الكبار الذين خصّهم الموفدون بالذكر. كان صلاح الدِّين يحاول كسب الوقت بطلب إطلاق سراح الأسرى المسلمين أوّلاً قبل أن يدفع فديته.

هذه الخدع الواضحة أثارت حفيظة ريتشارد. فبعدما يفي صلاح الدِّين بالتزامه بالكامل، يتمّ تسليم الأسرى المسلمين. هذا ما قاله الملك الإنكليزي. ومن الأفضل للسلطان أن يعجّل في الأمور، فالاتّفاق بدأ يتفكّك. إمّا أنّ صلاح الدِّين لم يفلح في جمع ما يكفي من المال والأسرى، أو أنّه كان لا يثق بذلك المحارب الشهير. وخشي أنّه بعد حصول ريتشارد على ماله، وسجنائه، وصليبه، قد تكون هذه نهاية المبادلة، وربّما نهاية أسراه.

في أجواء مشحونة بالشدّ والجذب كان موعد المهلة ينزلق إلىٰ أن طلب ريتشارد، بعد مرور عدّة أيام، وللمرّة الأخيرة، تنفيذاً فورياً لشروط الاتفاق. لقد هدّد ريتشارد بإعدام 2700 مقاتل مسلم في حوزته، إن لم يستلم أمواله وصليبه ورجاله في الحال. ثمّ مرّت أيّام أخرى من دون حسم، أمضاها

صلاح الدِّين في التأجيل والمواربة، ربّما اعتقاداً منه أن ريتشارد يخادع. ولم يكن اعتقاده في محلّه.

في 22 آب/ أغسطس 1191م، طلب الملك الصليبي الذي دفعه ورعه للمجيء واسترجاع الأرض الموعودة للمسيحية وليسوع، جمع الـ 2700 جندي مسلم. واقتيد هؤلاء إلىٰ خارج المدينة على طريق الناصرة، حيث نُظّموا في صفّ في منبسط بين موقع الجيش المسيحي الأمامي على تل العياضية وموقع الجيش المسلم الأمامي على تل كيسان. وهناك، تمّ قتلهم واحداً تلو الآخر؛

وتعليقاً على المذبحة قال كبير شعراء الحملة: هكذا تبارك الخالق!.